المقتبس

الارکیولوجیا

Archéologie

الارکیولوجیا کلمة یونانیة معناها الکلام علی العادیات او الآثار القدیمة . وقد خص استعمالها مؤخراً بالبحث عن قدم الانسان وحال معیشته حتی زمن التاریخ

وقبل الدخول في البحث عن تاریخ الانسان القدیم لا بد من تمهید جیولوجي لشدة علاقة موضوعنا بعلم الجیولوجیا — اي قدم العالم — فنقول :

یری معظم هذا الجیولوجیا ان الارض کانت قدیماً سدیمیة الهوام ثم جمدت فبردت نشرتها الظاهرة بعد زمن طویل الی ان صارت صالحة للطور الحیاة علیها فظهرت (بقوة علة العلل) منذ مئات الالوف من السنین . ولنسمی زمن ظهورها بالدور الثلاثي وتلا هذا الدور الرباعي فوجد الانسان في اواخره علی الارجح . ویری بعضهم ان الانسان ظهر في أواخر الدور الثلاثي غیر ان الآثار التي یعتمدون علیها لتعضید رأیهم لیست بثابت . ثم جاء العصر الحجري الطویل المدة حین کان اسلافنا الاقدمون یستخدمون الادوات الفراتیة من حجارة الصوان . وعقب هذا الزمان البرونزي فالحدیدي وفیه بدأت الحضارة الحقیقیة ووضع التاریخ . والازمنة الثلاثة الاخیرة من اخص مباحث علم الارکیولوجیا

وتمتاز مدد هذه العصور في اوغلها بخطل عشرات الالوف من السنین وبعضها کالزمان البرونزي لا یتجاوز ثلاثة آلاف سنة

وبرغم ما اکتشف من آثار الدور الرباعي لا یزال في معرض البحث والتمحیص من شوائب الریب تبدأ بیان عادیات العصر الحجري التي قد کشف ثلاثون في کثیر

منها . ويتبين من هذه الآثار ان الانسان ظهر في الارض منذ نحو عشرين الف سنة على الاقل وثمانية الف سنة على الاكثر

العصر الحجري — هذا العصر قديم جداً سابق لأقدم التواريخ البشرية من مثل الهيروغليفية المدونة على هياكل مصر وفي مدافنها . وانتهى على الجملة قبل المسيح بنحو ثلاثة آلاف سنة . غير ان بعض البلدان كمصر كانت قد تحضرت قبل المسيح بستة الى سبعة آلاف سنة وغيرها بقي الى ما بعد ذلك بزمن طويل في حالة الهمجية كما يرى اليوم في سكان استراليا الاصليين وبعض اهالي جزر المحيط وغيرهم المنفصلين عن العالم المتحضر

ويقسم علماء الاركيولوجيا العصر الحجري الى عدة ازمنة أخرنا عن ذكرها السوق الكلاء اليه هنا خوفاً من عرقلة التسلسل والتداخل

ويظهر من الآثار القديمة ان الانسان لم يهتد في اوربا الى استعمال المعادن الا قبل التاريخ المسيحي بالقرب الى ثلاثة آلاف سنة حين بدأ استعمال البرونز وبعد ذلك استعمال الحديد (قبل المسيح بنحو الف سنة)

وذلك فالعصر الحجري في اوربا وكثير من انحاء العالم الاخر في بدء زمان استعمال المعادن بعد ان استمر زمناً طويلاً

وقد وجدت آثار عديدة في جميع انحاء العالم تدل على ان الانسان استعمل الادوات الصوانية في همجيته حيث حل في القارات الست . وكانت هذه الادوات خشنة المتن غير مثقفة في اوائل عهد الهمجية ثم اخذت تهذباً في زمن سكن الكهوف ثم صقلت وارتقت في اواخر هذا العصر الذي نلاه زمن يسمى بالجديد وهو ما نسميه هنا بزمن العبور من العصر الحجري الى الزمن الحديث اي استعمال المعادن

وفي جملة ما عثر عليه الباحثون من البقايا الحيوانية والآلات الصوانية في كهوف بلاد الانكليز وفي بلجيوم والمانيا وفرنسا ومصر وآسيا واليابان واواسط افريقية والمكسيك وغيرها ما يدل دلالة واضحة على كيفية معيشة الانسان قديماً وعلى انواع الحيوانات المعاصرة له التي انقرض بعضها الآن كالماموث والفيل الكبير ونوع من فرس البحر هائل الجثة وكثير من الطيور التي لو رأيناها كلها الآن لما اكبر حجمها وغرابة مناظرها

وقد وجدت عظام هذه الحيوانات المنقرضة بجانب ادوات الانسان في مدافنه

وكهوف ورئي شيء من لحم بعضها لا يزال لاصقاً بالعظام

العصر الجليدي — واستدل علماء الآثار من أدلة عديدة وجدوها في طبقات متباينة العمق تحت الأرض وفي كهوف كثيرة ان نصف الكرة الشمالي كان معتدل الهواء في أواسط الدور الثلاثي الا ان سطح اوربا الشمالي كان في ذلك الوقت غير ما كان عليه في الدور الرباعي بعده . فكانت مياه الاوقيانوس الشمالي تغطي جميع الاراضي الواقعة الآن الى الشمال من خط يمتد من جنوب انكلترا الى بطرسبرج . وبعد ذلك تشمخت جبال الألب والقوقاس والكرپتيان . وفي اثناء ذلك تغيرت هواء تلك الاصقاع بما احدثته من الرطوبة والبرد فجلدت المياه وكانت تذوب حيناً فيتكون منها انهر جليدية تكسح في طريقها الشواطئ وتحدو الفلتشات حاملة الاوحال الى ابعاد سحيقة وجارفة الصخور تحملها وجه الارض . فنجم عن ذلك الرواسب الصخرية والرواسب الترابية في الوديان كما نشاهده اليوم . ويقدر العلماء ان عمق الجليد في الدور المذكور المسمى بالجليدي ايضاً يبلغ في جبال اسكندينافيا نحو من ستة آلاف قدم . ويحمل على شيئاً فشيئاً في الجنوب حتى محاذاة انكلترا ولكنه لم يبلغ قط جنوبيها كما ظهر من تحليل تربة الانهر الجليدية عند لندن .

والغريب انه كان يتخلل هذا الدور المتراس مدد معتدلة الهواء تدل عليها بقايا الاشجار والحيوانات المتحجرة . فتقلبات كهذه لا يمكن تصورها كما هي حقيقة لعدم وجود مماثل لها في عصرنا الثالث او القليل التغيرات

زمن سكنى الكهوف — حدث في القرن السادس عشر ان عني اهل اوربا بالبحث عن قرن الكركدن القديم المعروف بوحيد القرن لاعتقاد عامتهم ان لهذه القرون خاصة الشفاء من كثير من الامراض فجر البحث عنه ذلك الى اكتشاف كثير من الكهوف والمقابر التي كان يسكنها الانسان . ووجد فيها من الآنية والادوات الحربية ما يكفي للدلالة على نوع معيشة الانسان في اواسط العصر الحجري . الا ان هذه الابحاث لم تأخذ وجهة علمية الا منذ نحو قرن حين عثر على مقابر الضباع الهائلة التي كانت تفترس الموتى وفرس البحر . وكان المظنون ان هذه الآثار سابقة للطور الانساني غير انهم اكتشفوا بعد ذلك كهف كنت وهو من هذا النوع فوجدوا فيه آثار الانسان وآثار هذه الحيوانات المنقرضة جميعاً في جنب بعضها ان الانسان كان معاصراً لها ولقد ارتقى شيئاً حتى انه يشبه بعض متوحشي امريكة اليوم . ولكنه ارقى من

متوحشي جزائر صندويتش لانهم اكتشفوا على القوش ورسوم رسمها على العظام تشهد له بالتفوق حتى على بعض متحضي اهل زمانها

وقد شهدت رسوم الوعل والحيوث وغيره منقوشاً على عظام محفوظة في متحف بريطانيا فدهشت لحذقة صنعها والقان رسمها اتقاناً تقضي له حذقة ورياضة وارتقاء عقلي مما لا يمكن ان يتم الا بعد عصور عديدة من التقدم التدريجي . ويتصف هذا الزمان بكثرة الازهار حتى ان بعض ازهاره اوربا علاقة بسكان الكهوف

زمن الفلزات المصقول — بعد ان مضى على الانسان دور من الدهر وهو يستعمل الآلات الصوانية البسيطة الشكل الخشنة الحتى توصل الى صقلها وجعلها مستطيلة اكثر من سابقتها الثانية الى الاستدارة وجعل يعتني بتتبع الصوان وبحث في الارض بقرون الحيوانات كاوعل لاستخراج افضل انواعها . وكان يستعمل المطارق من الصوان ايضاً ومن الحجارة المستديرة الناعمة . وفي هذا الزمان كثرت آثار الانسان في الارض لان آثاره وجدت في معظم جهات العالم

زمن العبور من الصنعية الى الفخار — مر على الانسان نحو من الف سنة حاول فيها العبور من استعمال الحجارة الى استخدام المعادن . وكان الناس في آخر هذا الزمن قد ارتقوا كثيراً عن سابق عهدهم حتى انه وجد عند اكتشاف اميركا من بقايا القبور وآثارهم الراقية ما يجعل سادتهم الاسبانيين الفاتحين ووجدت كتابات رمزية في المكسيك لم يهتد العلماء الى حل رموزها الى الآن والمرجو ان تحل مع الزمان فيكون من وراء ذلك أعظم فائدة للتاريخ . لان في المكسيك شيئاً كثيراً مبهماً فالاطلاع فائدتها عن كشف رموز اللغة الهيروغليفية في وادي النيل خصوصاً لاقة رسومها تماثل شيئاً ما في اشكال والهيئ وحيواناتها تشبه حيوانات هاتين المملكتين فاذا حلت هذه الرموز كانت العلم من المن الكنوز

ويمتاز هذا الزمان بوفرة كم بقاياه لاطعمة من اصداف الاسماك وغيرها لان معظم المساكن كانت بالقرب من البحيرات والانهر وكان غذاء سافلة الجماة الى المياه عند الوقوع في خطر من هجوم الدواري . ووجد كثير من آثار الالفة على الآكام وفي مرتفعات منيعة بحصنة وحولها ركام من صدفات المأكولات وهي اسماك وحيوانات وبقايا بعضها مطبوخ بالنار

اما في سويسرا حيث الحيوات الحية تحيط بها الجبال فيظهر ان الانسان هناك

عيق جيرانه في الارتقاء مستقلاً استقلالاً نوعياً فكان بني آكواحد في ضفاف او بلاني فضلات طعامه فيها وعلى الخطر بفتح لوافذ الى المياه او بناء مسكنه في وسط الماء كما شوهد في بعض الاماكن والتفت الصرف ايضاً الى زراعة القمح والاعتناء بصيد الاسماك والحيوانات . وتوصل الى صنع الخزف وانتاج القصر والحبال وشيء من الاثواب وكانت أم ادوات الحجر اقرن الوعل .

ويمتاز جميع أهل هذا الزمان باقامة البنية مستديرة الشكل متجهة الى الشرق او الغرب او الى الجهات الاربع ولها دهاليز تحت الارض . والارجح انها هياكل . وقد عزم من انحراف اتجاه الشمس عن الياكل التي كانت مخصصة لها انها بنيت منذ نحو الفي سنة قبل المسيح . وبعد هذا التاريخ بدأ استعمال المعادن في انكلترا مع انها كانت مستعملة في مصر وغيرها قبل ذلك

الزمن البرونزي — كان البرونز وهو مزيج من النحاس والتنك مستعملاً في آسيا وغيرها قبل دخول استعماله الى اوربا فقوم من الساميين سلالة الآريين هاجروا اوربا من جهات مختلفة . فاستعمل البرونز اولاً في كريت قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة وبقي صقلية بعد ذلك بخمس مئة سنة وفي فرنسا بعد صقلية بخمس مئة سنة ولم يدخل الى بريطانيا حتى سنة ١٨٠٠ ق . م .

وكان هؤلاء الساميون عدد دعولم انكلترا يجرفون بعض موتاهم ويدفنون البعض الآخر . واذا دفنوا احداً وضعوا معه آلة عمله وشيئاً من الطعام ليتبلغ به في العالم الاسفل واما الشاذ فيوضع من شاء عدا آلة عمله وطعامه بجانبه

ومن الغريب ان يستعمل الانسان البرونز اولاً وهو مزيج مركب مع امكانه استخراج الحديد حالاً من معدنه الاصلي . وحل هذا المشكل يحل فيما بعد اما الآن فيظن ان الانسان وقع عرضاً على شيء من هذا المزيج فوجده وليناً وقابلية وملاءمة تركيبه بالاختبار فجرى عليها

ومما ان اول معدن خدم به عن الانسان وجده في السواقي والجداول حيث كان اهل العصر الحجري يفتشون عن مواد صوانية صالحة منها ادواتهم . فكان اهل الزمن البرونزي ما وجدوه منه في بر الى حجرية محفورة فيها رسم الفؤوس والسيوف وغيرها اشارة تقضي بالجاب صناعها اليوم . وكانت هذه الصناعة قد بدأت في مصر قبل ان يعرفها سكان شمالي البحر المتوسط

وفي هذا الزمن كان الذهب كثيراً في ايرلندا بدليل ما صنع من الادوات المبتذلة منه . وان وفرة ما كان يستخرج منه مما يدهش ولا مثل لها الا في كولمبيا من اعمال اميركا الجنوبية . الا ان الفضة لم تكتشف الا بعد الذهب بزمن ليس بقليل . واول ما ظهرت بيّن ما نعلم في سواحل اسبانيا بجوار الماريا حيث وجد منها كثير من الحلقات التي استعمل لتمتين المقابض الخشبية في اماكنها من تجاويف الفؤوس

ومن الغريب مشابهة رسوم الادوات الحجرية في جميع انحاء العالم مما يدل على تفوق الانسان من بقعة كانت قديماً محتده الاصلي

وخلاصة ما تقدم ان للانسان تاريخاً مقروءاً من هذه الادوات المصوانية والمعدنية تدل على ارتقائه بارتقاء صنعها وتعدد ضروبها واشكالها مما لا يترك محلاً للشك في كون الانسان تدرّج في معارج الترقي والارتقاء من الآدمي الغريق في الوحشية الى البشري ساكن الكهوف ومفترس الحيوانات الى صانع الآلات البرونزية التي اجتاز بواسطتها من طور التوحش الى طور استعمال الحديد فالحضارة

وهو الآن قد ابدل الاعصر القديمة بعصر البخار وجعل ينتقل منه الى عصر الكهرباء . وعما قليل نجده يأكل ويشرب ويلبس ويطير ويسبح وينام ويستيقظ ويبني ويهدم ويزرع ويحصد ويطبع ويسافر ويشهد الالعاب والملاهي على الارض وفي القبة الزرقاء بمساعدة قوة الكهرباء

هذا هو متوحش الامس ومتحضر اليوم فما عسى ان يكون انسان الغد ؟

لا ريب ان لكثير من غرائب الزمان لا يزال محجوباً للانسان ومن يعش ير

بيروت خليل سعد